الفصل السابع

التسامح والتعصب في الشرق

الإمبراطوريات العثمانية والمينغية والمغولية

قبل الانتقال للحديث عن بريطانيا العظمى التي كانت خليفة الجمهورية الهولندية، دعونا نلقي نظرة سريعة خارج نطاق الغرب. يسلط هذا الفصل الضوء على ثلاثة من المجتمعات غير الغربية - وهي العثمانية والمينغية والمغولية - التي ارتقت إلى ذرى لافتة من القوة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، إلا أنها لم تصل إلى حد يمكن معه أن نعدّها قوى عظمى. في كل واحدة من هذه الحالات الثلاث، كانت الإمبراطورية تصل إلى ذروة قوتها في العصر الذي كانت تمارس أقصى ما يمكن من التسامح. في المقابل، وفي كل واحدة من هذه الحالات أيضاً، كان التعصب بمثابة سرطان عمل في جسد الإمبراطورية، وحد كثيراً من نجاحاتها، وأدى في النهاية إلى انهيارها.

الإمبراطورية العثمانية

ترافق الصعود المدهش لنجم الإسلام في القرن السابع الميلادي منذ بدايته تقريباً مع الحروب والانقسامات بين المسلمين. يمكن النظر إلى الإسلام، تماماً كالمسيحية التي يعتبر امتداداً لها، من زاويتين في الوقت نفسه؛ ينظر إليه من الزاوية

obeikandl.com

الأولى باعتباره ديناً يمتاز بالتسامح من الناحيتين العنصرية والعرقية، وأن أبوابه مشرعة أمام الجميع بغض النظر عن ألوانهم ومشاربهم، ومن الزاوية الثانية، يتميز بالتعصب خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالدين. فهناك إله واحد وحقيقة واحدة.

عانى العالم الإسلامي طيلة مدة العصور الوسطى من انقسامات داخلية شديدة، بما في ذلك الانقسام بين الشيعة والسنة، وهو الانقسام الذي اتخذ طابعاً دموياً كالصراع الذي دار بين الكاثوليك والبروتستانت، بالإضافة إلى الصراع بين السلالات الحاكمة المتنافسة ومراكز الخلافة والمذاهب التي احتدم الصراع فيما بينها من أجل السيطرة على العالم الإسلامي. في دمشق، سنة ٧٥٠، قام العباسيون بذبح جميع أفراد الأسرة الأموية الحاكمة باستثناء أمير واحد. ولكن بالرغم من هذه النزاعات الداخلية، فقد قامت في العالم الإسلامي إمبراطوريات إقليمية قوية ثم سقطت بعدها. وكان من بين هذه الإمبراطوريات الإسلامية العظمى الإمبراطورية العثمانية؛ وكانت الأكبر والأكثر بقاء بين تلك الإمبراطوريات.

استمرت الإمبراطورية العثمانية التي أنشأتها أسرة عثمان التركية من سنة ١٣٠٠ إلى الحرب العالمية الأولى. امتدت في ذروة توسعها من حدود فيينا إلى البحر الأحمر، ومن شمال أفريقيا إلى البلقان. وكان أحد أهم المظاهر اللافتة التي امتازت بها الإمبراطورية العثمانية تسامحها الديني.

كان للإمبراطوريات الإسلامية تاريخ طويل تميز بالتسامح بالرغم من قيامها من حين لآخر بذبح «الهراطقة» من المسلمين ومن غير المسلمين. فقبل ما يقرب من ألف سنة على قيام الجمهورية الهولندية، والتي كانت الدولة الأوروبية الأولى التي جعلت مبدأ التسامح من ضمن مبادئ الحكم فيها، اشتهر الحكام المسلمون الفاتحون في القرن الثامن بالسماح للمسيحيين واليهود بالاستمرار في التعبد بالطريقة التي يختارونها - طالما اعترفوا بالحكم الإسلامي. كانت تلك سياسة مليئة بالدهاء إلا أنها كانت تعكس أيضاً المبدأ الإسلامي المتضمن حماية «أهل الكتاب» - أي المسيحيين واليهود الذين يؤمنون كالمسلمين بإله واحد، والذين كان ينظر المسلمون إلى كتبهم

الدينية باعتبارها تحتوي على عناصر من الوحي. استند الأتراك العثمانيون إلى هذه التقاليد وحكموهم بنوع من التسامح المدروس على امتداد منطقة فيها الكثير من التنوع العرقي والديني [١].

كان من المثير للانتباه أن الحكام العثمانيين كانوا يعون حقيقة أن تسامحهم النسبي قد عاد عليهم بالكثير من الفوائد المباشرة على حساب منافسيهم من الحكام المسيحيين المتعصبين. رأوا على وجه الخصوص، في اليهود السفارديم الذين كانت لهم صلات تجارية واسعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط مصادر محتملة للدخل الذي يصب في الخزينة الإمبراطورية. بعد أن تناهى إلى سمع السلطان بيازيد الثاني سنة ١٤٩٢ صدور قرار الطرد الذي أصدرته أسبانيا، أصدر هذا السلطان إعلاناً رحب فيه بالمنفيين وأمر الحكام في جميع أنحاء إمبراطوريته «بعدم رفض دخول اليهود» إليها، بل «الترحيب بهم بشكل لائق.» كما حذر من أن أي مخالفة لهذا القرار سوف تعرض صاحبها «للموت». قيل إن بيازيد كان سعيداً باكتشاف أن «من الخطأ وصف الملك الكاثوليكي فرديناند بالحكمة لأنه أفقر أسبانيا وأغنى تركيا من خلال طرده لليهود [٢].

كانت قوة الإمبراطورية العثمانية وروعتها قد وصلتا إلى الذروة في ظل حكم سليمان الكبير الذي حكم منذ سنة ١٥٢٠ إلى سنة ١٥٦٦، وهي المدة التي توصف بأنها العصر الذهبي في التاريخ العثماني. كان قائداً عسكرياً ملهماً أصر على أن يقود جيوشه بنفسه. فتح سليمان هنغاريا والعراق وشمال أفريقيا، وأسس لسيطرة عثمانية على منطقة البحر الأبيض المتوسط، كما مدّ حدود إمبراطوريته إلى أقصى مدى ممكن. كان سليمان أيضاً إدارياً أسطورياً. وقد وصفه سفير البندقية سنة ١٥٢٥ بأنه «أكثر الأباطرة عدلاً». كان سليمان معروفاً في العالم أجمع بحكمته وعدالته وتسامحه اللافت. (لم تكن هذه الصفات تطلق على أبيه سليم المقيت، الذي أرسى دعائم حكمه من خلال قيامه بإعدام إخوته، وستة من أبنائهم، وثلاثة من أبنائه هو.)

استمر سليمان في اتباع سياسة التسامح العثمانية من خلال السماح لليهود والمسيحيين بممارسة عقائدهم الدينية بحرية، وإدارة شؤون جماعاتهم. في المقابل، كان الرعايا من غير المسلمين يدفعون ضريبة من نوع خاص، وهذه الضريبة، وإن كانت مصدراً مهماً من مصادر الدخل الحكومي، كانت تتحدد بمدى القدرة على الدفع، وغير مرهقة. في ظل حكم سليمان، كانت القيود على المسيحيين واليهود بالنسبة للمناطق التي يرغبون في العيش أو العمل فيها شبه معدومة؛ وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون في المدن يتواصلون ويختلطون فيما بينهم بشكل يومي. وكان المسيحيون واليهود يشاركون المسلمين في النقابات نفسها المهنية، كما كان بإمكانهم رفع دعاوى قضائية على المسلمين في المحاكم الإسلامية.

كانت الصداقات عبر الحواجز الدينية ممكنة، وكان من الشائع عقد تحالفات سياسية وتجارية بين عائلات تنتمي إلى أديان مختلفة. وكان المسلمون وغير المسلمين يتبادلون التهاني في الأعياد الدينية. فقد كان المسيحيون في عيد الفصح على سبيل المثال، يقدمون البيض المصبوغ باللون الأحمر لجيرانهم المسلمين الذين كانوا يردون التحية بدعوة المسيحيين لتقاسم اللحوم مع المسلمين في عيد الأضحى. وكان أكثر ما هو مدعاة للفت النظر أن اليهود والمسيحيين مارسوا طريقة الحياة التي اختاروها، وكانت الأوضاع الاقتصادية للكثيرين من بينهم مزدهرة. في واقع الأمر، كان بعض أكثر الناس ثراء في المدن العثمانية الرئيسة من غير المسلمين [٢].

كانت الإمبراطورية العثمانية حتى في ظل حكم سليمان المحب للخير قوة تنتمي إلى عصر ما قبل التنوير - فلم يكن للرعايا أي حقوق سياسية - إذ من الخطأ إعطاء الانطباع بأن اليهود والمسيحيين والمسلمين كانوا يكنون احتراماً لبعضهم بعضاً. فقد كان الناس المنتمون إلى ديانات مختلفة يلتزمون عادة بالجماعات التي ينتسبون إليها، وكان من المتعارف عليه أن الزواج المختلط لم يكن أمراً مألوفاً أو حتى مسموحاً به. ونظراً إلى أن اليهود والمسيحيين والمسلمين كانوا يتبعون تقاويم مختلفة، «فإن تقسيم الشهور وتعداد السنين كانا مختلفين أيضاً، بحيث إن كل

مجموعة دينية كانت تنظر إلى التقويم بعين مختلفة.» اللافت أكثر، أن العثمانيين كانوا يتبعون نظاماً هرمياً يستند أساساً إلى الدين، كما كان من الواضح أن الإسلام كانت له اليد العليا. فمهما بلغت درجة ثراء اليهودي أو نجاحه، فقد كان موقعه الاجتماعي أدنى مرتبة من موقع المسلم، تماماً كما كان موقع النساء أدنى مرتبة من موقع الرجال [٤].

عملياً، كان يتم تجاهل معظم هذه القيود أو التراخي في تطبيقها. فالعديد من غير المسلمين كانوا يتمتعون بقدر كبير من السلطة والنفوذ. كانت السيرة المهنية لجوزيف ناسي خير مثال على ذلك. فقد ولد ناسي في البرتغال لعائلة ميسورة من "المهتدين" تعمل في مجال البنوك، وكان لهذه العائلة عملاء في كافة أنحاء أوروبا الغربية بمن في ذلك ملكا أسبانيا وفرنسا. غادر ناسي الأراضي الهابسبورغية سنة ١٥٥٤ قاصداً اسطنبول، حيث اعتنق هو وعائلته من جديد الديانة اليهودية، وقد تزعمت عائلته الطائفة اليهودية في الإمبراطورية العثمانية. خلال سنين قليلة، أصبحت عائلة ناسي واحدة من كبار الممولين للخزينة العثمانية، وكانت تضع يدها على احتكارات واسعة وأسهم تجارية كثيرة في كافة أنحاء الإمبراطورية وحتى خارجها.

بحلول سنة ١٥٧٠، أصبح جوزيف ناسي - الذي يعتبر الآن واحداً من أهم المقاولين في البلاد - أيضاً أحد أكثر الأفراد نفوذاً في البلاط العثماني. فقد كان أقرب مستشاري السلطان، وكان يتمتع بنفوذ قوي في مجال السياسة الخارجية (أسهم سنة ١٥٦٩ في إقناع الهولنديين بالانتفاضة ضد أسبانيا مقروناً بوعد بالمساعدة من العثمانيين.) وقد كوفئ ناسي بتعيينه حاكماً على مقاطعتيْ ناكسوس وسيكليديس أرتشيبيلاغو، بالإضافة إلى منحه لقب "الدوق" في إيطاليا. تمثل قصة ناسي ليس فقط كيف يمكن لغير المسلم أن يرتقي سلم السلطة في الإمبراطورية العثمانية، بل كيف تطبق بعض القيود الرسمية على غير المسلمين بشكل متراخٍ (على الأقل، في بعض الحالات). من غير المحتمل مطلقاً أن يكون ناسي قد ركب الحمير أو

البغال في طريقه إلى البلاط الإمبراطوري، أو أن يكون قصره المهيب قرب اسطنبول قدر حجم بيوت المسلمين العاديين. الأهم من ذلك، كان ناسي في واقع الأمر، وبحكم كونه أحد أشهر جامعي الضرائب، يمارس سلطة واسعة على العديد من المسلمين، حتى لو لم يكن القانون ينص على ذلك [٥].

كان أحد المكونات الرئيسة الأخرى للتسامح العثماني يتمثل في تعاملهم مع الذين تحولوا إلى الدين الإسلامي. فبغض النظر عن وجود أفراد استثنائيين أمثال ناسي، كان المجتمع العثماني يتسم عموماً بصفة الهرمية التي تقبع على رأسها فئة العساكر، أو الطبقة الحاكمة، وهي متاحة فقط للمسلمين تحديداً. إلا أن أي فرد من شعوب الإمبراطورية، بغض النظر عن أصوله العرقية أو طبقته الاجتماعية، كان بإمكانه أن يعلن إسلامه ويصبح مسلماً، وبالتالي يمكن له من حيث المبدأ أن ينضم إلى الطبقة الحاكمة. بالإضافة إلى ما تقدم، كان المتحولون إلى الدين الإسلامي يتم التعامل معهم بالطريقة التي يُعامل بها أي شخص «وُلِدَ مسلماً»؛ ومن ثم لم تكن هناك أي قيود على فرص النجاح التي يمكن أن يفيدوا منها. وهو ما دعا بوسبيك، السفير الهابسبورغي إلى الإمبراطورية العثمانية خلال فترة حكم سليمان إلى إبداء إعجابه مدوَّناً:

> الموهبة وحدها هي التي تدفع الناس باتجاه الارتقاء في السلم الوظيفي ضمن نظام يضمن أن تكون المواقع وقفاً على من يستحقها. ... لا يؤمن العثمانيون بأن الميزات الرائعة فطرية أو وراثية ... لكنها من ناحية، هبة من الله، ومن ناحية أخرى، نتاج للتدرب الجيد، والجهد الشاق، و ... الاندفاع. ... فالاحترام والمواقع الرفيعة ومناصب القضاء هي بمنزلة المكافأة للإمكانات الكبيرة والخدمة الممتازة. هذا هو سبب نجاحهم فيما يصبون إليه.

كانت فرص "المهتدين" إلى الإسلام في ارتقاء المواقع العامة من دون أي عوائق أو حدود في طريقهم تمثل تناقضاً لما كان يحدث في أسبانيا الكاثوليكية حيث تم الحظر على اليهود الذين تحولت عائلاتهم إلى الديانة المسيحية منذ وقت طويل

تبوء أي مواقع رفيعة بسبب دمهم «غير النقي»، كما استمروا في مواجهة خطر امتد قروناً من الزمن من أن يتم إعدامهم حرقاً على الخوازيق [٦].

لم يكن مفهوم التسامح العثماني الإستراتيجي مع ذلك، ينتمي إلى المفهوم نفسه المعتمد في العصر الحديث، ولم يكن بالتأكيد متجذراً في مبدأ احترام حقوق الإنسان أو الحرية الفردية المعمول بهما اليوم، وخير مثال على ذلك كان نظام التجنيد والتدريب العثماني للحرس الإمبراطوري اللافت للنظر، والمعروف باسم الجيش الإنكشاري. كان العثمانيون يقومون بجباية الضرائب سنوياً، وكانت نسبة من تلك الضرائب تتمثل في تجنيد فتيان تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين من العمر الذين يتم جمعهم من المناطق المسيحية التي يتم غزوها وفتحها. لم يكن أبناء المسلمين يخضعون لمثل هذا التجنيد بسبب أنه كان من السائد الاعتقاد أن الشباب من أصول مسيحية الذين توفر لهم فرصة اعتناق الإسلام، وتتم تنشئتهم في بيئة غريبة عن بيئتهم الأصلية سوف يصبحون أكثر تعصباً وأكثر ولاء للإمبراطورية. وقد أتى معظم هؤلاء الفتيان حتى القرن السابع عشر بشكل رئيس من أصول فلاحية من منطقة البلقان من ألبان وبلغاريين وكرواتيين وصربيين وإغريق، وفيما بعد، من روسيا وأوكرانيا.

كان هؤلاء الفتيان يعزلون بشكل تام عن عائلاتهم الأصلية باعتبار أنهم أصبحوا ملكاً للسلطان، ويتم تحويلهم إلى الإسلام، وتدريبهم كي يصبحوا إما جنوداً أو إداريين وموظفين حكوميين في البيروقراطية العثمانية. كان يُفْرَض عليهم حظر شديد. فبحكم كونهم «عبيداً للدولة»، كان يمنع هؤلاء المجندون من الزواج، وكانوا ملزمين بخدمة الإمبراطورية مدى العمر. كان يتم اختيار الواعدين منهم وتهيئته لولوج عالم الطبقة الحاكمة. في تلك المدارس النخبوية، أصبح الطلاب ضليعين في اللغتين الفارسية والعربية، كما درسوا القرآن، وتم إعدادهم لتبوء مراكز قيادية عسكرية. وكان الأذكى من بينهم يرتقي إلى مواقع رفيعة حيث يمكن أن يتم تعيينه في مناصب إمبراطورية كمنصب رئيس الوزراء، أي كبير وزراء ومستشاري

السلطان. جميع كبار وزراء السلطان سليمان باستثناء واحد فقط، كانوا من العبيد المسيحيين السابقين، الذين قدموا من خلفيات شديدة التواضع.

كان المجندون الذين لم يرتقوا إلى سوية الطبقة الحاكمة، ينضمون إلى الجيش الإنكشاري، وهو مؤسسة من جنود النخبة من المشاة الذين شكلوا حرس السلطان الخاص. وصل عدد أفراد الجيش الإنكشاري في أعلى مراحل قوته ونفوذه في القرن السادس عشر إلى ما يقرب العشرين ألفاً. ربما كان هؤلاء الأفضل تدريباً بين كل الجيوش الأوروبية، واللافت أنهم جميعاً كانوا من غير الأتراك. كان أفراد الجيش الإنكشاري يعيشون حياة فيها الكثير من الرفاهية؛ وبحكم أنهم كانوا يرثون من يموت من الإنكشاريين، فقد تجمعت بين أيديهم ثروة عظيمة مشتركة. وهكذا، فبينما اعتبرت بعض العائلات المسيحية أخذ الفتيان «كضرائب بشرية» هو أسوأ أشكال الاضطهاد العثماني، فإن عائلات أخرى رأت في ذلك فرصة سانحة لأبنائها للانتقال مستقبلاً إلى مناصب عليا في الإمبراطورية، ووسيلة من أجل تبوء مواقع رفيعة ما كان من الممكن تصورها لولا هذا الإجراء [٧].

جنا العثمانيون مكاسب كبيرة من تسامحهم الإستراتيجي. فقد وفر لهم هذا التسامح تعاوناً، أو على الأقل رضاً وقبولاً من الشعوب التي استعمروها وذلك من ترانسلفانيا إلى اليمن، وصولاً إلى السهوب الإيرانية. وكما كانت الحال في أي إمبراطورية، كانت حركات تمرد متفرقة تقوم هنا وهناك بين الحين والآخر، إلا أنها كانت تقمع بشدة بواسطة آلة الحرب العثمانية. أما التسامح العرقي والعنصري الذي يشكل إحدى سمات الإسلام الأساسية، فقد كان ورقة إستراتيجية رابحة جداً بيد العثمانيين. فقد اعتنقت أعداد كبيرة من المسيحيين الإسلام بعد مضي فترة قصيرة على استعمار بلدانهم. وبالرغم من أن بعض هؤلاء أشهر إسلامه بناء على إيمان برسالة النبي، إلا أن الذرائعية كانت الدافع الأقوى بالنسبة إلى أغلب من أعلنوا إسلامهم.

كان اعتناق الإسلام الذي لم يرتبط بعرق أو لون يعني بالنسبة للعثمانيين، زيادة مطردة في أعداد الرعايا المسلمين المتعاونين، كما كان يعني توافر أعداد مهولة من القوة العاملة التي ترفد قطاعيّ الزراعة والجيش؛ وكانت تلك الزيادة تتمثل على المستويات الأعلى، بمجموعة من الأفراد الموهوبين الذين ارتقوا السلم الوظيفي بموجب نظام الجدارة العثماني المدهش. كان العثمانيون قادرين على استثمار مسألة اعتناق الإسلام تلك، من أجل تكوين مجموعات نخبوية خاصة من الخدم الموالين للسلطان، كما يدل على ذلك، الجيش الإنكشاري، وتعيين سليمان لكبار الوزراء من بين هؤلاء.

ساعد التسامح الديني النسبي، الإمبراطورية العثمانية في تحقيق مكاسب جمة من خلال رعاياها الذين لم يعتنقوا الإسلام. فقد أسهم رعايا الإمبراطورية من غير المسلمين من مختلف المشارب والمذاهب – المسيحيون الموارنة، واليعقوبيون، والأقباط المصريون، والمسيحيون النسطوريون، والمسيحيون الأرثوذكس اليونانيون، والمسيحيون الأرثوذكس الأرمن، واليهود اليونانيون والأيبيريون، من بين أقوام أخرى عديدة – بشكل كبير في إضفاء الحيوية على الإمبراطورية ، وفي توسعها الاقتصادي. أحضر اليهود الهاربون من الهابسبورغيين معهم إلى تركيا تجارتهم التي لا تقدر بثمن، بالإضافة إلى شبكاتهم المالية التي جعلت مدناً عثمانية مثل اسطنبول والقاهرة وحلب وسالونيك تتحول إلى مراكز رئيسة للتجارة العالمية.

كما قدم اليهود الأوروبيون للعثمانيين المعرفة العلمية والطبية، بالإضافة إلى تكنولوجيا جديدة في مجالات الصناعة والأسلحة والذخائر. كتب نيكولاس دو نيكولاي وبيير ميلون دو مان، الرحالتان الأوروبيان اللذان زارا الإمبراطورية في الخمسينيات من القرن السادس عشر، عن المساهمة اليهودية اللافتة في النجاح العثماني ما يلي:

> كان من بين اليهود عمالٌ يزاولون مختلف الفنون والحرف الرائعة، وخصوصاً أولئك [المهتدين الذين تم طردهم مؤخراً من كل من أسبانيا والبرتغال، والذين – لسوء

طالع المسيحيين - قاموا بتعليم الأتراك فن الغوص، والأعمال الحرفية، وتصنيع الآلات الحربية؛ كما علموهم كيفية صنع المدافع، والبارود، والطلقات النارية، وصناعة أنواع أخرى من الذخائر، وقاموا بإنشاء مطابع لم يسبق أن تم وضعها في الخدمة في تلك البلدان.

عمل العديد من الإغريق والأرمن والموارنة اللبنانيين ومجموعات مسيحية أخرى في مجال المقاولات، وأدوا أدواراً مهمة في مجالات الأعمال البنكية، وصناعة السفن، ونسج الصوف وإنتاج التبغ، والاتجار في مواد باهظة الثمن [٨].

بدت الإمبراطورية العثمانية في ذروة قوتها المتمثلة في توسعها الإقليمي الباهر وتطورها الثقافي وازدهارها تحت حكم السلطان سليمان الكبير، وكأنها في طريقها كي تصبح القوة الإسلامية المطلقة الأولى في التاريخ. ولكن لم يقيض لها ذلك. فقد كانت الإمبراطورية العثمانية - حتى وهي في ذروة مجدها - مجرد قوة إقليمية محاطة من جميع الجهات بمنافسين أشداء من الفرس الصفويين إلى الهابسبورغيين وصولاً إلى الإمبراطورية الموسكوفية بقيادة إيفان الرهيب.

لو قيض لسليمان أن يعيش مئة سنة أخرى، لكان من الممكن أن تكون الأمور على غير تلك الشاكلة. لكن خلفاء سليمان الذين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر من السلاطين، كانوا متفاوتين في مستوى مواهبهم وإمكانياتهم؛ فكان من بينهم العاجز والأحمق. ونظراً لكون الحكومة العثمانية مبنية على هيكلية هرمية دكتاتورية بشكل استثنائي، فإن وجود سلطان ضعيف في سدة الحكم يُعَد مسألة كارثية. تكاتفت العديد من العوامل من أجل إضعاف الإمبراطورية ابتداءً من النصف الثاني من القرن السادس عشر؛ إلا أن فشل خلفاء سليمان في المحافظة على مبدأ التسامح المدهش الذي أرساه، أدى دوراً جلياً في انحلال الإمبراطورية [٩].

ربما كان من المهم ملاحظة أن الإمبراطورية بعد عهد سليمان أضحت غير قادرة أن تترفع عن التعصب والانقسامات الدينية التي تسببت في إراقة الدماء بين المسلمين منذ القرن السابع حتى وقتنا الحاضر، وأعني بها الانقسام بين السنة

والشيعة. فبالرغم من أن التوجه العام في الإمبراطورية العثمانية كان مبنياً بشكل دائم على المذهب السني، إلا أن مذهب التشيع كان عموماً موضع احترام في ظل حكم السلطان سليمان. لكن الشرايين الدينية للإمبراطورية بدأت في التصلب بعد وفاته. سعى المسؤولون من بعده إلى كبت الحريات الدينية، بما في ذلك الفكر الشيعي. وفُرض حظر على الصحف المطبوعة. ظهرت حركات تمرد شيعية في العراق وبلاد فارس وقد قُمعت لاحقاً بشدة بواسطة القوات الإمبراطورية التي كانت تفوق تلك الحركات عدداً وعدة، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى تقوية شوكة مملكة الصفويين الشيعية التي ذهبت إلى أبعد من ذلك من خلال عقد تحالفات مع بعض القوى الأوروبية ضد العثمانيين [١٠].

في الوقت نفسه، بدأت مظاهر الترحيب بالأجانب وغير المسلمين التي طبعت الإمبراطورية في عصرها الذهبي بالانكماش أيضاً. كان هناك دائماً خط في الفكر الإسلامي ينتقد التجار والتجارة، وخصوصاً المتاجرة مع غير المسلمين. هذا الكره للتجارة وأهلها يمكن أن يكون العامل الذي دفع باليهود وغير المسلمين بشكل عام للسيطرة على معظم النشاط التجاري في الإمبراطورية. لكن حقيقة أن معظم التجار والمقاولين والخبراء الماليين كانوا من الأجانب، أدت إلى وضع غير مستقر البتة. وسواء كان الدافع وراء ذلك هو الاستياء من هؤلاء التجار، أو الشكوك الحقيقية ذات المنشأ الديني حول التجارة، فقد بدأ التجار يتعرضون في نهاية القرن السادس عشر إلى وابل من الانتقادات الدينية التي كانت تتزايد يوماً بعد يوم، وبعد ذلك، فُرضت الضرائب عليهم بشكل غير متوقع، كما صُودرت أملاكهم. وقد وُضع حظر على تصدير البضائع خارج حدود الإمبراطورية؛ كما قُمعت الإبداعات الاقتصادية والتكنولوجية، وهو ما أدى ليس فقط إلى خنق التجارة بل إلى إضعاف للجيش العثماني الذي أصبحت أسلحته وسفنه بالية بمعايير ذلك الزمن [١١].

وبينما كان غير المسلمين ما زالوا يتمتعون بمعاملة وفرص عمل أفضل من تلك التي كان يتلقاها غير المسيحيين في معظم دول أوروبا في نهاية القرن السادس

عشر، إلا أن خطوط التشقق بدأت في الظهور في ذلك الجدار، وتحولت فيما بعد إلى شقوق واضحة المعالم. تعرض التجار والباعة المتجولون من اليهود في كافة أنحاء الإمبراطورية للهجوم والسرقة والقتل. وعندما مات أحد الأطباء اليهود من العاملين في البلاط الإمبراطوري، سعى رئيس الأطباء بنجاح إلى تعيين بديل له من الأطباء المسلمين، وكانت حجته في ذلك أن البلاط يعج بالأطباء اليهود؛ وانخفض خلال الخمسين سنة اللاحقة، عدد الأطباء اليهود في البلاط من واحد وأربعين إلى أربعة أطباء فقط. عندما تمرد أمير مقاطعة والاتشيا، مايكل «الشجاع» على سلطة العثمانيين سنة ١٥٩٤م، قام فوراً بذبح جميع اليهود (والأتراك) في بوخارست الذين كان الرومانيون مدينين لهم. ولكن في الوقت الذي ازداد النزاع الداخلي سوءاً، بدأ اليهود يتعرضون إلى هجمات من العثمانيين أيضاً. أُرغم شابيتاي تزيفي في ستينيات القرن السادس عشر، وكان زعيم إحدى الحركات اليهودية الدينية على الاختيار بين الموت أو اعتناق الإسلام. (اختار اعتناق الإسلام.) وفي واحدة من الحروب الأخرى التي اندلعت سنة ١٦٨٨م ضد النمساويين، قام الجيش الإنكشاري بإحراق الحي اليهودي في بلغراد وتدميره [١٢].

أسباب تداعي الإمبراطورية العثمانية متعددة وخضعت لنقاشات حامية، كما هي الحال في كل إمبراطورية. وبينما كانت القرون تمضي، كانت الإمبراطورية العثمانية تتعرض للهزائم، وتفقد المزيد من الأراضي. حققت القوى الأوروبية الغربية تفوقاً متزايداً على الصعيدين الاقتصادي والتكنولوجي، وامتد نفوذها إلى الأمريكيتين وآسيا بطريقة لم تستطع الإمبراطورية العثمانية بلوغها. أدت الثورات الداخلية المتزايدة وتصاعد الشعور القومي دوراً حاسماً في إضعاف الإمبراطورية. وفي الوقت نفسه، ترافق الانهيار النهائي للعثمانيين مع موجة من التعصب الأعمى. وقد سبق التدمير النهائي للإمبراطورية سنة ١٩٢٢، وعجّل في حدوثه من زوايا عديدة، انتشار الكراهية العرقية والدينية والطائفية والعنف خصوصاً في منطقة البلقان. هاجم المسلمون المسلمين، واضطهد المسيحيون الأرثوذكس اليونانيون

مسيحيين يونانيين من طوائف أخرى، في الوقت الذي جُعل آخرون من اليهود كبش فداء فأعملوا فيهم القتل. توج هذا الإرهاب العرقي بمذبحة الأرمن التي حدثت في أثناء الحرب العالمية الأولى، والتي ذهب ضحيتها ما يقرب من ٨٠٠٠٠٠ من رعايا الدولة العثمانية من الأرمن، وذلك أثناء عملية طردهم من الإمبراطورية، وحتى بعد أن طردوا منها [١٢].

سلالة المينغ الحاكمة في الصين

في بداية القرن الخامس عشر، أرسلت حكومة المينغ خصياً مسلماً هو الأميرال "زينغ هي" على رأس أسطول قوامه ثلاثمئة «سفينة كنوز» عملاقة على متنها أكثر من ثمانية وعشرين ألف رجل في سبع رحلات بحرية مخرت عباب المحيط الهندي. كانت سلالة المينغ حينها في وضع يمكنها من السيطرة العالمية أكثر من أي قوة أوروبية؛ ذلك أن الأباطرة المينغيين الذين ورثوا عن المغول صيناً موحدة، حكموا رعايا أكثر مما حكم العثمانيون وملوك أوروبا مجتمعين. أما من الناحية التكنولوجية، فقد كانت الصين في عهد المينغيين أكثر تقدماً بكثير من أوروبا المتخلفة. ففي عهدهم، اخترعت الطباعة، والبارود، والبوصلة المغناطيسية. بزت الصين في القرن الخامس عشر أوروبا في مجالات أخرى أيضاً: ففي حفل تدشين عاصمتهم الجديدة، وتدعى "المدينة العصية" أولم المينغيون الطعام المكون من عشرة أنواع لستة وعشرين ألفاً من الضيوف على أطباق من البورسلين الفاخر، في حين أن الإنجليز أولموا لستمئة ضيف طعاماً مكوناً من سمك الكود المملح قدموه على أرغفة من الخبز وذلك في حفل زفاف هنري الخامس، ملك إنجلترا على كاثرين فالوا.

بحلول سنة ١٤٢١، استطاعت القوة البحرية الهائلة التي يملكها المينغيون أن تقزّم أي قوة أخرى في العالم. فقد بلغ العدد الإجمالي للأسطول الإمبراطوري أكثر من أربعة آلاف سفينة بما في ذلك ليس فقط السفن التسع العملاقة، وإنما ١٣٥٠ سفينة مراقبة، و ٤٠٠ سفينة حربية، و ٤٠٠ سفينة نقل بضائع كالقمح والماء والخيول

بالمقارنة مع "الأسطول الملكي" الذي أعده الملك هنري الخامس لغزو فرنسا والمكون من أربع سفن للصيد تستوعب كل منها مئة رجل تقلهم عبر القناة الإنجليزية إلى الشاطئ الفرنسي في كل رحلة. كانت السفن الصينية أشبه بمخلوقات عملاقة من خشب الساج مزودة بمدافع حديدية هائلة الحجم، باستطاعتها حمل بضائع أكثر من مثيلاتها الأوروبية بأربعمئة مرة؛ وكانت دفة أي من تلك السفن في الغالب بنفس طول البارجة "نينا" التي أقلت كريستوفر كولومبس إلى أمريكا [١٤].

لكن الصين المينغية لم تكن لديها الرغبة في أن يكون لها نفوذ عالمي. ففي سنة ١٤٢٤، حول الأباطرة المينغيون اهتمامهم المَرَضي إلى الداخل؛ حيث قاموا بتفكيك أسطولهم البحري الخاص بهم، ورفضوا ممارسة أي نوع من أنواع التجارة مع العالم الخارجي. نتيجة لذلك، أصبحت الصين بحلول سنة ١٦٠٠، خلف أوروبا تكنولوجياً، وعسكرياً، وتجارياً بأشواط بعيدة.

كرّس الحكام المينغيون الأوائل بعد طرد المغول سنة ١٣٦٨ جميع طاقاتهم للإصلاح الزراعي الداخلي متجاهلين تماماً العالم التجاري خارج حدود الصين. منع زاو يوانزانغ، مؤسس سلالة المينغ الحاكمة ارتداء الملابس وتسريحات الشعر «الأجنبية» في بلاطه، وأصدر أوامره مرتين فرض بموجبهما على رعاياه الظهور بأزياء شبيهة بتلك التي كان يتم ارتداؤها في القرن السابع في عصر سلالة التانغ الحاكمة. (من المفارقة أن يعتبر الإمبراطور زاو سلالة تانغ الحاكمة «صينية» صرفة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مؤسسها كان في أغلب الظن نصف تركي.) اعتقد الإمبراطور زاو، وهو المؤسس الوحيد لسلالة حكم صينية، والذي كان ينتمي إلى أصول فلاحية، أن مهمة الحكومة الرئيسة هي حماية المزارعين الذين تعتمد عليهم البلاد في ثروتها. وهكذا، فقد وضع نظام ضرائب زراعية فاعل سجل بموجبه أسماء جميع سكان الصين، وجمد الضرائب عند المعدلات التي كان معمولاً بها في القرن الرابع عشر. كما كان يمنع باستمرار محاولات التجار السفر باتجاه الخارج.

تغير ذلك كله فجأة سنة ١٤٠٣ مع اعتلاء يونغل، ابن زاو، عرش الإمبراطورية. كان يونغل يعرف أنه مغتصب للسلطة التي انتزعها بالقوة بعد صراع داخل القصر مع ابن أخيه الذي عينه والده الإمبراطور اللاحق. أخذ يونغل على عاتقه إقامة مشروعات عملاقة على الفور في معرض محاولته إضفاء الشرعية والمهابة على نظام حكمه. أمر يونغل بنقل العاصمة من نانجينغ إلى بيجين، ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى خشيته من استمرار الخطر المغولي في الشمال، وكانت تلك مهمة تتطلب إصلاحاً هائلاً للقناة الكبرى، من بينها بناء سبعة وأربعين مغلاقاً تربط ما بين هانغزو وبيجين، ونقل ٢٣٥٠٠٠ من الجنود مع عائلاتهم. في الوقت نفسه، كان يونغل متلهفاً لتوجيه القوة الإمبراطورية الصينية خارج حدودها الحالية. أرسل الجيوش شمالاً بهدف إخضاع المناطق المغولية، وجنوباً من أجل فتح ما يعرف اليوم بفيتنام (وقد فشل في كلتا الحالين). الإمبراطور يونغل نفسه كان هو من موّل بعثات الأميرال "زينغ هي" لاكتشاف المحيطات، وفرض الضرائب، وأخذ على عاتقه مهمة تعريف العالم بقوة الصين في عهد المينغيين وروعتها.

كان زينغ هي صينياً مسلماً؛ وكان كل من أبيه وجده قد حجّا إلى مكة. قام يونغل بتعيينه في مرتبة أميرال ربما بسبب معرفته بالعادات الأجنبية، خصوصاً في البلدان الإسلامية. ونظراً إلى أن سلالة تانغ الحاكمة قامت سابقاً بإرسال بعثات إلى الخارج منذ قرون، فقد كان الأميرال زينغ هي يبحر بمساعدة خرائط في منتهى الدقة – كان يبلغ طول إحدى تلك الخرائط عشرين قدماً، وكانت تتضمن اتجاهات إبحار مفصلة، بالإضافة إلى أسماء مدن إفريقية ساحلية مثل مومباسا وماليندي (في كينيا الحالية). كانت أجسام سفن (زينغ هي) تحتوي على مقصورات منفصلة من الموانع المائية التي سمحت بإجراء ما يلزم من عمليات الإصلاح أثناء الإبحار. كانت تلك المقصورات تحتوي أيضاً على المياه العذبة والأسماك لإطعام المسافرين[١٥].

كانت سفن النفائس التي يقودها "زينغ هي" الأكبر في العالم؛ وكان باستطاعتها شحن ٢٥٠٠ طن من المواد المختلفة، وكانت تتجاوز في طاقتها السفن الأوروبية

بمعدل عشرة أضعاف من حيث الحجم وعدد البحارة على متنها. وكان على متن سفن (زينغ هي)

٨٦٨ من المسؤولين المدنيين، و ٢٦٨٠٠ جندي و٩٣ ضابطاً واثنان من كبار القادة و ١٤٠ كابتنا بإمرة كل واحد منهم ألف جندي، و٤٠٣ من قادة المئة جندي، وكبير أمناء مجلس الخزينة، وضارب بالرمل، ومدرب عسكري، واثنان من القضاة العسكريين، و١٨٠ من الأطباء ومساعديهم، واثنان من حَفَظة النظام، وسبعة من السفراء من المخصيين، وعشرة من المخصيين الأدنى مرتبة، و ٥٣ من المخصيين الحُجّاب.

هذا بالإضافة إلى عدد غير محدد من المترجمين، والناسخين، والملاحين، والميكانيكيين، والمفاوضين، والبحارة والطباخين. وبلغ عدد الأطباء والمتخصصين في المداواة بالأعشاب لوحدهم ١٨٠ شخصاً – وهو ما يوازي طاقم فاسكو دو غاما بأكمله. وبعكس طاقم كريستوفر كولومبس الذي لم يكن يتوافر لديه سوى ماء آسن للشرب، وكان أعضاؤه يأكلون الطحين المعجون بمياه البحر، كان لدى (زينغ هي) ورجاله «فائضاً من مخزون القمح والماء العذب والملح وسائل الصويا والشاي والخمور والزيت والشموع، وخشب التدفئة والفحم النباتي [١٦].

أخيراً، كانت سفن النفائس هذه تحمل الكنوز أيضاً. فقد كانت سفن (زينغ هي) تعود محملة بأثمن وأبهى البضائع التي كان الحكام الأجانب يرسلونها على سبيل الهدايا للإمبراطور. لكن رجال زينغ هي، بعكس المغول الذين سبقوهم، أو البرتغاليين الذين أتوا من بعدهم، لم يقوموا بأي عمليات تخريبية. بدلاً من ذلك كله، قاموا بتقديم الهدايا الرمزية للحكام المحليين – كالحرير الملون، والمظلات، والكتب، أو التقاويم السنوية – مقابل بضائع نادرة مثل العنبر، وخيول السباق، والببغاوات، والطواويس، وخشب الصندل، والذهب، والفضة «و عين القطة ذات الحجم الكبير، والياقوت وأنواع أخرى من الأحجار الكريمة، وأغصان كبيرة من الكهرمان، والعنبر، وعطر الأزهار»، بالإضافة إلى أنواع غريبة من الحيوانات التي تجلب الحظ مثل الطيور التي تشبه الجمال (النعامة)، والزرافات، وحيوانات الكركدن، والفهود المرقطة ببقع ذهبية اللون، وحمير الوحش، والأسود [١٧].

انتهى كل ذلك سنة ١٤٢٤ بنفس الفجائية التي بدأت بها تقريباً. توفي الإمبراطور يونغل، علّقت على أثر ذلك حكومة المينغيين جميع الرحلات البحرية. وبعد أن تمت الموافقة بعد لأي، على أن يقوم (زينغ هي) برحلته البحرية الأخيرة سنة ١٤٣٣، منع البلاط الإمبراطوري بناء أي سفن عابرة للمحيطات. كما أحيلت سفن النفائس إلى أحواض خاصة وتركت من دون أي صيانة إلى أن عاث فيها الخراب. أعيد تعيين بحارة (زينغ هي) للعمل في القناة الكبرى كجباة ضرائب. أخيراً، صدر أمر إمبراطوري حُظر بموجبه بناء أي سفن تحمل أكثر من ساريين، وكان أكثر ما يبعث على الاستغراب إتلاف السجلات الرسمية للبعثات والرحلات البحرية التي قام بها (زينغ هي).

أسهم العديد من العوامل في «انتصار تيار الجنوح باتجاه الانكفاء». أكد كبار الموظفين الكونفوشيوسيين الذين احتجزوا سفن النفائس رسمياً أن البعثات البحرية مكلفة جداً، إلا أن المؤرخين بشكل عام، يجمعون على أن ذلك لم يكن سوى حجة كي ينتزعوا السلطة من منافسيهم من خصيان البلاط الذين كانوا يضعون أيديهم على البحرية الإمبراطورية. كان البيروقراطيون الكونفوشيوسيون محافظين شأنهم في ذلك شأن الإمبراطور المينغي الأول، وكانوا بطبيعة الحال، معادين لمهنة التجارة، ومقاومين لأي محاولة للتغيير الاجتماعي، بما في ذلك التوسع فيما وراء البحار. الأهم من هذا وذاك، كان هناك التهديد المتجدد الذي يمثله المغول الذين أعادوا تجميع صفوفهم بعد وفاة يونغل، وبدؤوا بغزو الأراضي الصينية.

ألحقت القوات المغولية بالوحدات الإمبراطورية المينغية هزيمة نكراء سنة ١٤٤٩ في موقع يسمى "تومو" وهو الآن محطة لتجمع السيارات الشاحنة على مسافة ساعتين إلى الشمال من بيجين. وما زاد في الإحساس بالإذلال، هو أن المغول استطاعوا القبض على الإمبراطور المينغي الذي ساقوه أسيراً إلى منغوليا. وبالرغم من أن المغول أعادوا الإمبراطور الأسير إلى بيجين في السنة اللاحقة، إلا أن هزيمة المينغيين في تومو أحدثت نقلة نوعية دائمة في سياسة الصين الخارجية. فمنذ ذلك

الحين، ازداد إحساس الأباطرة المينغيين بعقدة رهاب الأجانب، وأعادوا بذلك بعث الفكرة القديمة القائلة بأن الصين هي المجتمع المتحضر الوحيد في العالم، والمحاط من جميع جوانبه ببرابرة خطرين ليس لديهم أي شيء ذي قيمة يمكن أن يقدموه للبشرية. استحوذت فكرة خطر قيام المغول بغزوهم على عقولهم، ومن ثم حاول الأباطرة المينغيون عزل أنفسهم، فأعادوا بناء السور العظيم، ومنعوا بشكل متكرر أي شكل من أشكال التجارة الخارجية، وأي اتصال مع الأمم الأجنبية. وبحلول سنة ١٥٥٠، كان رعايا الإمبراطورية ممنوعين ليس فقط من بناء سفن بغرض السفر بحراً، بل من مغادرة البلاد.

استمرت سلالة مينغ الحاكمة حتى سنة ١٦٤٤. ولكن من قبيل المفارقة أن القضاء عليها تم ليس من قبل المغول، بل من قبل المانكوسيين، وهم من البرابرة القادمين من مناطق الشمال الشرقي. مرت الصين المينغية بحقب تميزت بالنمو الاقتصادي حتى بعد أن فرضت على نفسها تلك العزلة منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر. عزز من هذا النمو الزيادة المطردة في عدد السكان، بالإضافة إلى وجود جيوب من التجارة الداخلية النشطة خصوصاً في منطقة وادي "يانغتزي" المنخفض، والمناطق الجنوبية في "فوجيان" و"غوانغزاو".

ولكن لم يكن بمقدور الصين المينغية بعد منتصف القرن الخامس عشر - وفي بعض الحالات لم تكن لديها الرغبة في ذلك - المنافسة على المسرح الدولي. انحدرت الصين تكنولوجياً بالمقارنة مع الغرب، ويبدو أنها نسيت الكثير من ابتكاراتها واختراعاتها، ولم تبادر بالقيام بأي ثورة علمية أو صناعية من ذلك النوع الذي غير وجه أوروبا. في الوقت نفسه، تركت لأسطولها البحري الذي كان هائلاً يوماً ما، أن يتداعى وينهار بالكامل، وتحاشت أي شكل من أشكال التوسع فيما وراء البحار، وتخلت عن سيطرتها على البحار لمصلحة الأوروبيين [١٨].

الإمبراطورية المغولية
حكام مسلمون ورعايا هندوس

"أيوضيا" هي مدينة صغيرة في شمال الهند؛ و بحسب الأسطورة الهندوسية، هي المدينة التي ولد فيها الأمير راما الذي كان التجسيد السابع ل "فيشنو"، أي الإنسان الكامل الذي يجسد الحقيقة الكلية والأخلاق. في السادس من شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة ١٩٩٢، قامت عصابة من القوميين الهندوس المسلحين بالمطارق والفؤوس بهدم المسجد الموجود في أيوضيا، والذي يعود إلى خمسمئة سنة خلت، بزعم أنه ينتهك حرمة المكان الذي ولد فيه راما. أدى هدم ذلك المسجد الذي بني إبان حكم "بابور"، الإمبراطور المغولي الأول، إلى اندلاع موجة من القتال الشرس بين المسلمين والهندوس في كافة أنحاء الهند. وأدى ذلك القتال بين أفراد مختلف العصابات إلى إزهاق أرواح ما يقارب ألف شخص من الطرفين. من جانبهم، برر المتطرفون الهندوس تلك الهجمات ضد «أبناء بابور» بأنها تشكل انتقاماً لقرون من الاضطهاد الذي مورس ضدهم خلال الحكم الإسلامي.

تأسست الإمبراطورية المغولية التي حكمت الهند قبل الإمبراطورية البريطانية مباشرة على يد أحد أحفاد جنكيز خان. (كلمة المغول هي اللفظة الفارسية لكلمة «منغوليين».) حكمت تلك الإمبراطورية في ذروة سطوتها شبه القارة الهندية وأجزاء مما يعرف اليوم بأفغانستان وباكستان. كان الأباطرة المغول مسلمين شأنهم في ذلك شأن سلاطين بني عثمان الذين مارسوا الحكم بطريقة تتماشى مع العصر. ومع ذلك، فقد حكموا ما يربو على مئة مليون إنسان مدة تزيد على قرنين من الزمن؛ وكان ما يقرب من ٨٥٪ من هؤلاء من غير المسلمين: كانوا بشكل رئيس من الهندوس والسيخ واليانيين والمسيحيين [١٩]. يصر القوميون الهندوس هذه الأيام على أن المغول كانوا حكاماً متوحشين ومتعصبين ومضطهدين لرعاياهم من غير المسلمين. هل كانوا بالفعل كذلك؟

صحيح أن بابور، مؤسس الإمبراطورية المغولية أمسك بزمام السلطة من خلال ركوبه موجة التعصب. أشعل بابور عواطف جنوده المسلمين من خلال إطلاق وصف الجهاد أو الحرب المقدسة على حربه ضد الهندوس وذلك كي يكون باستطاعته إلحاق الهزيمة بالملوك الراجبوتيين العظام الذين كانت أعدادهم تفوق أعداد جيشه بنسبة عشرة أضعاف. ولكي يثبت حسن التزامه بالإسلام، قام بإهراق جميع محتويات مجموعته من الخمور على الأرض، وتحطيم كؤوس وزجاجات الخمر أمام رجاله. أعطى هذا الفعل -الذي يشبه الأضحية- للجنود شحنة من الحماس الديني الذي قادهم إلى النصر في معركة "كانوا" الحاسمة. ولكن من المؤكد أن الفضل في انتصار بابور يعود إلى أن رجاله كانت بحوزتهم أسلحة نارية، بينما لم يكن لدى الراجبوتيين أسلحة مماثلة. على أي حال، بعد أيام من المذابح، فر الراجبوتيون من أرض المعركة ممهدين بذلك الطريق لبابور المنتصر كي يحكم شمال الهند. لكن بابور لم يحكم سوى أربع سنين (من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٥٣٠) قبل أن ينتقل إلى العالم الآخر. الإمبراطورية التي تركها في عهدة ابنه "همايون" كانت مجزأة ومعادية للحكم المغولي، ومصابة بتمرد علني من جميع أطياف الإمبراطورية. فقد همايون السيطرة على الإمبراطورية المغولية طيلة خمس عشرة سنة استولى خلالها الحكام الأفغان على العرش وأقاموا شبكة مدهشة وفاعلة لجباية الضرائب. أخيراً، وبعد قضاء عدة سنين في المنفى في بلاد فارس، أعاد همايون فتح الإمبراطورية سنة ١٥٥٥. بعد ذلك بسبعة أشهر، وبينما كان همايون المسكين يسرع لأداء فريضة الصلاة، تعثر بردائه فتدحرج على الدرج عدة مرات مما أدى إلى وفاته [٢٠].

لكن سلالة المغول الحاكمة لم ترسِ دعائم سلطتها وقوتها إلا على يد الإمبراطور "أكبر" ابن همايون، وخلفائه من بعده، إذ تحولت إلى واحدة من أعظم الإمبراطوريات في عصرها. لم يكن من قبيل المصادفة أن "أكبر" والملوك المغول الآخرين في عصر المغول الذهبي كانوا من بين أكثر الحكام تسامحاً من الناحيتين الدينية والعرقية في تاريخ عالم ما قبل الحديث. في حقيقة الأمر، أنه لولا ممارسة

هذا التسامح، ما كان من الممكن للإمبراطورية المغولية أن تستمر طيلة تلك المدة، أو أن تصل إلى تلك الذرى الشاهقة من العظمة الثقافية. في المقابل، ارتبط عصر انحطاط الإمبراطورية المغولية ببعض أكثر مراحل الاضطهاد العرقي والديني دموية في تاريخ الهند.

كان مرشد الإمبراطور الفتى "أكبر" واحداً من الأوصياء الطموحين؛ تولت إرشاده بعده مجموعة تقودها "ماهام أنغا"، وكانت والدته بالتبني. وعندما شب عن الطوق، بدأ يشعر بالاستياء من محاولات الحد من سلطاته. عندما أصبح في سن السابعة عشرة سنة ١٥٦٠، أرغم وصيه على الاستقالة، وقيل إنه أرسله للحج إلى مكة (تم اغتيال الوصي في الطريق إلى هناك). وعندما قتل ابن ماهام أنغا أحد وزراء أكبر، أمر هذا الأخير بأن يرمى أخوه بالتبني من على سطح القصر إلى باحة القصر عدة مرات إلى أن مات. ثبّت أكبر دعائم حكمه في البلاط بشكل لا يقبل اللبس قبل أن يصل إلى سن الثلاثين.

لكن تثبيت دعائم حكمه على الإمبراطورية كان يشكل تحدياً أكبر من ذلك بكثير. فكان عليه كي يمنع إمبراطوريته من الانهيار، أن يضع شبكة من منافسيه الشديدي المراس في ظل رقابة لصيقة. وكان من بين هؤلاء، الأفغان الذين تمت الإطاحة بهم مؤخراً، والنبلاء الفرس من وسط آسيا، والراجبوتيون الهندوس، والماراثيون، وكذلك الأمراء المسلمون من مقاطعة لودي.

كانت الدبلوماسية المتشددة أحد مظاهر الحل الذي وضعه أكبر، وكان التلاقح الثقافي مظهراً آخر لهذا الحل. صاهر "أكبر" عائلات من منافسيه، أو خصومه؛ وهو بذلك مشى على خطى الإسكندر الكبير، ولو بمنحى أعظم بسبب عدد النساء اللواتي كن يشكلن حريمه. ربما كانت أهم نجاحاته في هذا المجال تتمثل في زواجه من الابنة الكبرى "لراجا" حاكم مقاطعة أمبر، وهو أحد أشد الملوك الراجبوتيين الهندوس استقلالية. لم تكن فكرة زواج أميرة هندوسية من سلطان مسلم مألوفة،

إلا أنها لم تكن غير معروفة بالمرة في أرجاء شبه القارة. لكن أكبر ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. فقد سمح للأميرة جوهاديبي بأن تبقى على ديانتها الهندوسية، وممارسة طقوس هذه العبادة في معبد هندوسي داخل قصره، وكان أكبر من حين لآخر يشارك في هذه الطقوس التعبدية. شجع هذا التسامح غير المألوف الزعماء الراجبوتيين الآخرين على البدء في مفاوضات من أجل الانضمام إلى النخبة الإمبراطورية من خلال تزويج بناتهم للإمبراطور. عندما توفي الإمبراطور أكبر، كانت له أكثر من ثلاثمئة زوجة بمن فيهن الراجبوتيات والأفغانيات وأميرات من الممالك الهندية الجنوبية، والتركيات والفارسيات كما تزوج اثنتين من النساء المسيحيات اللتين كانتا تنحدران من أصول برتغالية.

أدت تلك الزواجات إلى عقد تحالفات مع أقارب الزوجات من الذكور الذين كان يمكن الاعتماد عليهم لتقديم الدعم والمساعدة. حصل أكبر على ولاء الآلاف من المحاربين الراجبوتيين، في الوقت الذي منع فيه أي محاولة للانتفاضة على حكمه من قبل الراجبوتيين. استفاد الراجبوتيون أيضاً من هذا التحالف. فقد أصبح من بينهم جنرالات إمبراطوريون، وموظفون في إدارة شؤون الإمبراطورية. وتنامت قوة بعضهم لدرجة أنهم بدؤوا بالسيطرة على إقطاعياتهم بشكل مستقل. لم يقاوم المغول سوى قلة من الحكام الراجبوتيين الذين دفعوا مقابل تلك المقاومة ثمناً باهظاً. فقد انهارت الحصون الراجبوتية الكبرى في كل من شيتور ورانثامبور أمام الجيش المغولي، الذي كان معظم قادته من إخوانهم الراجبوتيين أنفسهم.

امتدت سلطة أكبر لتشمل أشخاصاً من مختلف الديانات. وبالرغم من أن أكبر كان أمياً، فقد عمل على ملء بلاطه بفنانين ومفكرين (تماماً كما فعل أحد أسلافه في الماضي البعيد، وهو خوبيلاي خان). وكان من بين أعضاء بلاطه تسعة أشخاص من ذوي النفوذ الكبير الذين كانوا يعرفون باسم "نافراتانا" أو الجواهر التسع التي ترصع التاج المغولي. أربع من تلك الجواهر التسع كانت من الهندوس، وكان من بينهم وزير المالية، وقائده العسكري، ومستشاره، ومهرج البلاط رجا بربال

الذي كانت حواراته الذكية مع الإمبراطور ما تزال تروى حتى أيامنا هذه على شكل حكايات شعبية، بالإضافة إلى المغني والمؤلف الموسيقي الهندوسي الأسطوري "تانسين". قيل إنه عندما كان تانسين يغني أغاني "الراجا"، وهي نوع من أنواع الموسيقى المعقدة لا نظير لها في الموسيقى الغربية، كان النهار يتحول إلى ليل، وتبدأ الأمطار بالتدفق من السحب.

كان الإمبراطور أكبر مفتتناً بموضوع الديانات المقارنة. بنى سنة ١٥٧٥، قاعة ضخمة خصصها لحوار الأديان. انضم في نهاية المطاف إلى المشاركين في هذا الحوار رجال دين مسلمون، وقساوسة من طائفة الهندوس، والرهبان اليانيون، والكهنة الزرادشتيون، وأعضاء البعثات التبشيرية اليسوعيون القادمون من غاوا، المستعمرة البرتغالية. نشأت في منطقة البنجاب، في ذلك الجو من التسامح الذي طبع تلك الحقبة، الديانة السيخية، وهي ديانة توفيقية تجمع بين بعض السمات الهندوسية والإسلامية. كما شهدت الثقافة الشعبية شكلاً من أشكال الاندماج في العادات والاحتفالات والأساطير. كانت الحركتان البختية والصوفية اللتان انبثقتا من رحم كل من الهندوسية والإسلام على التوالي، تحتويان على معتقدات نابعة من الديانتين في وقت واحد، وكانتا تدعوان إلى وحدانية الإله. (يحج الهندوس حتى يومنا هذا إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في مناطق آجمير، وفاتحبور، وسيكري، بينما يصلي المسلمون في أغلب الأحيان للآلهة الهندوسية المحلية مثل الإلهة ستيلاماتا، إلهة الحمى الصفراء.) في واقع الأمر، كان الإمبراطور أكبر غالباً ما يُقارَن في الأغاني والقصائد الشعرية الهندوسية بالإله الهندوسي "راما" – وهو من باب المفارقة، نفس الإله راما الذي باسمه قام القوميون الهندوس بتدمير المسجد في مدينة أيوضيا سنة ١٩٩٢م.

كان الإمبراطور أكبر يؤمن بمبدأ مشاركة إخوانه الحكام في رؤيته الدينية المتنورة. ففي رسالة بعث بها إلى الملك فيليب الثاني الأسباني سنة ١٥٨٢، قال:

بما أن معظم الناس تجمع بينهم روابط التقاليد، وإتباع خطى آبائهم وأجدادهم وأقاربهم ومعارفهم، يستمر الجميع من دون التحقق من مصداقية الأفكار والأسباب في التمسك بالدين الذي نشؤوا عليه وتعلموه؛ وهم بذلك يبعدون أنفسهم عن إمكان التثبت من الحقيقة التي هي أنبل هدف للفكر البشري. ونحن لهذا السبب، نتواصل في الأوقات المناسبة مع علماء الدين من مختلف الملل والنحل، وننهل من معين أفكارهم الرائعة وطموحاتهم التي لا حدود لها [٢١].

لا يوجد في الأرشيف ما يشير إلى رد على تلك الرسالة من قبل الملك فيليب الذي كما علمنا من قبل، كان مشغولاً بإنهاء الهرطقة البروتستانتية، والإشراف على «مجلس الدم» في هولندا.

ما كان يدعو إلى الدهشة أن أكبر لم يكن يحابي المسلمين. وكان في زمن الحرب، يسحق حركات التمرد بنفس الدرجة من الوحشية سواء كانت من قبل المسلمين أو الهندوس. هاجم كافة مظاهر الفساد بين رجال الدين المسلمين، وبادر إلى إجراء إصلاحات جذرية تتضمن توزيع الامتيازات في تملك الأراضي بشكل متساوٍ بين رجال الدين من كل التابعيات الدينية على حد سواء. كان يحتفل بالإضافة إلى الأعياد الإسلامية، بعيد "الديوالي"، وهو عيد الأنوار عند أتباع الديانة الهندوسية. كما منح غير المسلمين، في تحد سافر للقوانين الأصولية الإسلامية، الإذن بترميم معابدهم، وبناء دور أخرى للعبادة. قام أيضاً بإصدار أمر منح بموجبه الإذن للهندوس الذين أجبروا على اعتناق الإسلام بالارتداد إلى ديانتهم الأصلية من دون أن يتعرضوا إلى عقوبة القتل. وفي سنة ١٥٧٩، قام أكبر بطريقة دراماتيكية، بإلغاء قانون الجزية، وهي ضريبة إجبارية تفرض بشكل حصري على غير المسلمين.

امتدت مدة حكم أكبر خمسين سنة (١٥٥٦-١٦٠٥)، وتعرف هذه الحقبة حتى أيامنا هذه بأنها كانت في ظل أكثر حكام الإمبراطورية المغولية نجاحاً. كان العديد من كبار مستشاريه من التابعية الفارسية، كما أن الفلسفة والأدب واللوحات التي سادت في تلك الحقبة، كانت تعكس تقديره الكبير للثقافة الفارسية. إلا أن فشله

الذريع تمثل في محاولته غير الموفقة لخلق «نظام إيماني جديد» يسمى "الدين الإلهي" ويفترض أن يضم عناصر من الفكر الإسلامي والهندوسي والزرادشتي. كان هدف أكبر على ما يبدو، ليس استبدال الديانات الموجودة بل التأسيس «لنوع من الدين العالمي الذي يطلق عليه حرفياً تسمية دين الله، وليس دين محمد أو المسيح أو كريشنا»، لكن الإيمان بهذا الدين الجديد كان يتطلب «ولاء مطلقاً لشخص "أكبر" نفسه. لم ينجح "الدين الإلهي" في استمالة سوى قلة قليلة من الأتباع في الإمبراطورية، وحتى ضمن عائلة الإمبراطور نفسه. كما أن تأسيس هذا الدين أثار حفيظة القادة المسلمين الأصوليين الذين رأوا فيه هرطقة، وحاولوا القيام بثورة على الإمبراطور. إلا أن البطل الإمبراطوري للتسامح العالمي سحق هذه الثورة من دون رحمة [٢٢].

استمر الإمبراطوران اللذان خلفا الإمبراطور أكبر بنهج سياساته نفسها حول مسألة التسامح الديني. كان جاهانغير، النجل الأكبر للإمبراطور أكبر وخليفته انتقائياً جداً فيما يتعلق بمسألة الأديان لدرجة أن السفير الإنجليزي لاحظ أن «ديانته هي من اختراعه هو.» كان جاهانغير، مثل والده، يعقد حلقات نقاش دينية علنية. كان يستمتع بشكل خاص بالخلافات بين الكهنة اليسوعيين ورجال الدين المسلمين، وكان غالباً ما يضرب بيديه على فخذيه تعبيراً عن استحسانه عند قيام أحد الطرفين بتسجيل نقطة ضد الطرف الآخر. التقى في إحدى المناسبات بأحد النساك الهندوس في مغارته، وقد أثرت تلك المقابلة فيه تأثيراً شديداً. كتب جاهانغير معلقاً على تلك المقابلة فيما بعد: «تبادلنا فيما بيننا كلمات رفيعة المستوى. فقد وهبه الله جلت قدرته مهابة غير اعتيادية.» في غضون ذلك، ازداد استهلاك جاهانغير للحم الخنزير والخمر المحرمين في الإسلام خلال شهر رمضان المبارك.

كانت المسيحية أيضاً تشد اهتمام جاهانغير بالرغم من أن جاذبيتها بالنسبة له انحصرت في مظاهرها الاحتفالية أكثر من مضمونها. كان يحضر القداس في أعياد الميلاد، وكان يستعير الكنيسة من حين لآخر لإقامة المآدب. وبالرغم من أنه

لم يعتنق المسيحية أبداً – فقد كان يرى أن فكرة كون المسيح ابناً لله هي على الدرجة نفسها من العبثية لإيمان الهندوس بالتقمص – فقد سمح لثلاثة من أحفاده باعتناق المسيحية وأقام بهذه المناسبة احتفالاً عاماً في "أغرا" بمناسبة تعميدهم. لم يكتفِ جاهانغير بالسماح لليسوعيين بالوعظ بحرية في كافة أنحاء الإمبراطورية، بل أعطى كل واحد منهم مرتباً بلغ خمسين روبية في الشهر من الخزينة الإمبراطورية.

أما شاه جاهان، («حاكم العالم»)، وخليفة جاهانغير، فقد اشتهر بالدرجة الأولى لبنائه تاج محل الذي يقطع الأنفاس، والذي كان بمثابة ضريح بناه من أجل ممتاز محل، وهي زوجته التي كان يحبها كثيرا. عمل في بناء ذلك الضريح زهاء عشرين ألف عامل، واستغرق بناؤه عقدين من الزمن، وكان هذا الصرح الرخامي يجمع بين الفن المعماري الفارسي والفن المعماري الهندي، ورسومات هندوسية وإسلامية. أصبحت كلمة "مغول" تجسيداً للمجد والعظمة الثقافية في ظل حكم شاه جاهان. وكان أحد العوامل التي ساعدت في ترسيخ هذه الفكرة أن شاه جاهان كان أغنى رجل في العالم آنذاك، وكان معروفاً بحبه للتبذير. أمر بتشييد قلاع رائعة المنظر وقصور ومساجد في كافة أنحاء الإمبراطورية من دون أن يحسب حساباً للمصاريف، وبتبذير وصل إلى درجة التهور. بنى لنفسه عرش الطاووس الشهير الرائع، والمرصع بالجواهر بكلفة وصلت إلى ٢٥٠٠ من الليرات من الذهب الخالص، والتي قيل إنها الكنز الأعلى ثمناً، والذي تم صنعه في السنوات الألف الأخيرة.

استمر شاه جاهان بالسماح لرعاياه من غير المسلمين بممارسة طقوسهم الدينية في كافة أنحاء الإمبراطورية، لكنه كان أكثر أصولية وأقل قبولاً للآخر من أسلافه. فقد قلب سياسة جده "أكبر" من خلال منع غير المسلمين من ترميم معابدهم أو تشييد معابد جديدة. كما منع المسلمين من اعتناق ديانات أخرى في الوقت الذي منح رواتب شهرية لغير المسلمين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. في الوقت نفسه، شن شاه جاهان عدداً من الحملات العسكرية في آسيا الوسطى ومناطق الصفويين في بلاد فارس. لكن هذه المحاولات التوسعية المكلفة وغير الناجحة في أغلب الأحيان

أدت ليس فقط إلى استنزاف موارد الخزينة، بل إلى وضع حد بشكل شبه نهائي لتدفق المهاجرين الفرس إلى الهند [٢٢].

انتقل حكم الإمبراطورية المغولية سنة ١٦٥٨ إلى يدي أورانغزيب ألامغير، وكان الابن الثالث لشاه جاهان. أصبح أورانغزيب إمبراطوراً بعد أن قام بقتل أخيه الأكبر، دارا - الذي أرسل رأسه على طبق إلى والدهما الذي كان يحتضر. كان دارا يتميز بفضول فكري، وكان باحثاً منفتح العقل، وكان يبدي اهتماماً كبيراً بالهندوسية واليهودية والسيخية والمسيحية بالإضافة إلى الإسلام. وكما أوضح أورانغزيب لاحقاً، فقد كان «الخوف من رؤية الدين المحمدي يضطهد في الهند فيما لو اعتلى أخي دارا العرش» هو الدافع الذي حدا به إلى الإمساك بزمام السلطة.

كان أورانغزيب بكل المقاييس - على الأقل بالنسبة إلى كونه قاتل أخيه - شخصاً ورعاً جداً. وكان يعيش، بالمقارنة مع بعض أسلافه المنحطين أخلاقياً، عيشة في غاية البساطة: كان يحيك قبعات الصلاة، وينسخ القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب مرة إثر مرة بخط يده.

وسّع أورانغزيب الاضطهاد الذي بدأه شاه جاهان، وزاد من وتيرته. بدأت المعايير الدينية الأصولية تطغى شيئاً فشيئاً على البلاط الإمبراطوري. فقد منع أورانغزيب شرب الكحول وتدخين الأفيون كما فرض حظراً على الاحتفالات الدينية لغير المسلمين. ولأول مرة منذ قرن، لم يتم الاحتفال بعيد الديوالي الهندوسي، أو بعيد النيروز الربيعي الفارسي في البلاط. في معرض تعزيزه للقوانين الجديدة الصارمة، عين أورانغزيب "المحتسبين" أو الرقباء على الأخلاق العامة في كافة أنحاء الإمبراطورية.

فرض أورانغزيب حكم الشريعة (القانون الإسلامي) على كافة أرجاء الإمبراطورية؛ مناقضاً بذلك سياسات التسامح الديني التي كان معمولاً بها في السابق. سوّى بالأرض كل المعابد والأضرحة الهندوسية بما في ذلك معبد ماثورا

الكبير. كما وضع يده على الأراضي التي وُهِبت للمؤسسات الهندوسية وأعاد توزيعها على رجال الدين المسلمين. كما أعاد فرض الجزية سنة ١٦٧٩، وهي الضريبة الجزائية المفروضة على الرعايا من غير المسلمين، مما أدى إلى احتجاجات حامية في كافة أنحاء الإمبراطورية.

كان التعصب الذي مارسه أورانغزيب كارثة على الإمبراطورية. بدايةً، أدى اضطهاد الهندوس إلى إلحاق الأذى بالتجارة. فعندما أرغم أحد أتباع أورانغزيب الموثوقين موظفاً هندوسياً على اعتناق الإسلام في مدينة سورات، غادرت ثمانية آلاف عائلة هندوسية غاضبة تلك المدينة الساحلية مما أدى إلى توقف الحركة التجارية هناك بشكل فعلي.

أدى التعصب الإسلامي الذي مارسه أورانغزيب إلى ما هو أدهى وأمر، وأكثر تدميراً للإمبراطورية؛ فقد تسبب في تمزيق الوحدة السياسية والدينية الهشة في الإمبراطورية المغولية. تسببت حملته الشرسة في إبادة الديانة السيخية - بما في ذلك تدمير المعابد، وإعدام زعيم طائفة السيخ (من دون توجيه أي تهمة له بشكل رسمي) - في تعميق الكراهية للمغول في قلوب عشرات الآلاف في شمال الهند، وتمهيد الطريق أمام عسكرة أفراد هذه الطائفة.

في غضون ذلك، تآلفت في جنوب الهند عدد من عشائر "الماراثا" لخوض الحرب ضد التسلط المغولي. وكان قائد تلك العشائر شخص يدعى "شيفاجي" الذي تحول في حينه إلى بطل شعبي أسطوري، واعتبره الكثيرون مؤسس حرب العصابات في الهند. نجح شيفاجي في طرد المغول من "ديكان" التي تعرف اليوم بولاية مهراشترا، توج بعدها ملكاً على كونفيدرالية ماراثا سنة ١٦٧٤. أنفق أورانغزيب خلال العقدين اللاحقين أموالاً طائلة في محاولة منه للتشبث في مواقعه ضد الماراثيين الذين استغلوا تكتيكات حروب العصابات، ومعرفتهم بالأرض في إلحاق خسائر دامية بالجيش المغولي القوي. وبدلاً من تقوية صلاته بالهنود الراجبوتيين - الذين كان

من الممكن أن يستمروا في تحالفهم معه، والذين كانوا في السابق من أهم بناة الإمبراطورية المغولية - قام أورانغزيب بنهب معابدهم، مما أدى في النهاية إلى وقوفهم أيضاً ضده.

لم يكن الهندوس وحدهم الذين كان عليهم مواجهة أصولية أورانغزيب الإسلامية. كان الشيعة أيضاً يواجهون الأصولية ذاتها. ونظراً لأنه كان سنياً متعصباً، وجه أورانغزيب جيوشه لفتح مقاطعتي "بيجابور" و"غولكوندا" اللتين كانت تحكمهما منذ عدة قرون، عائلات تنتمي إلى الطائفية الشيعية.

حافظ أورانغزيب على وحدة الإمبراطورية حتى وفاته سنة ١٧٠٧، من خلال جيوشه الجرارة التي كانت تسحق أعداءها بوحشية، وتنتزع شأفة الهراطقة، وتبسط سلطة الحكم المغولي على الأراضي الهندوسية والشيعية. عند موته، كانت الإمبراطورية المغولية أكبر وأكثر اتساعاً من أي وقت في تاريخها، أو فيما بقي من مستقبلها. ولكن بسبب الحروب المستمرة التي خاضها في الداخل والخارج، وصلت الإمبراطورية إلى حد الإفلاس. الأدهى من ذلك، كانت بذور الكراهية والانقسامات التي نثرها في كافة أنحاء الإمبراطورية قد جعلت من الهند فريسة سهلة لمروجي سياسة فرّق تسد، والتي استغلها البريطانيون أيما استغلال، محولين بذلك الهند من شبه قارة تحكمها إمبراطورية إسلامية إلى جوهرة في تاج أكبر إمبراطورية غربية عرفها العالم في تاريخه.

ربما فهم أورانغزيب المتعصب طبيعة إرثه الشخصي متأخراً. كتب لابنه وهو على فراش الموت: «جئت إلى هذا العالم غريباً، وسأغادره كما جئته. لا أعرف من أنا، ولا ماذا كنت أفعل. ارتكبت خطايا فظيعة، ولا أعرف أي نوع من العقوبات ينتظرني» [٢٤].